شخصية بارزة

ولي الدين يكن

١٨٧٣ – ١٩٢١

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فقدًا يتهافت عليه ابناؤهم ! »
(ولي الدين يكن)

ان في البشرية نفوساً مُترعة لا تفيض الّا اذا تألمت ، وقلوباً ظافحة لا تسيل الّا اذا جُرحت. من هذه النفوس الشاعرة كانت نفس ولي الدين ، ومن هذه القلوب الحسّاسة كان قلب ولي الدين ! جرّعته الحياة كأس الآلام حتى الثمالة ، وهبت به عواصف الطغيان حتى مهاوي الظلم . فشعر بالشقاء على جميع وجوهه ، وشعر بالحاجة الى الحرية في جميع مواطن الاستبداد . وكان له من مخيّلته الواسعة ، وبيانه الجذّاب ، ما رفع ذاك الشعور الى قمة الفن الرائع ، فبدا متجنّساً باسلوب شخصي ، ومذهب طريف. فكان شاعراً في كل مآتي حياته ، شاعراً في شخصيته البارزة من خلال آثاره جميعها.

حياته

شبابه (١٨٧٣ – ١٨٩٦)

اسرته – مولده

هو محمد ولي الدين بك ابن حسن سري باشا ، ابن ابراهيم باشا يكن . كان جدّه ابن اخت محمد علي باشا الكبير ، مؤسس الدولة المالكة في مصر ، فحمل لقب « يَكن » ، وهو كلمة تركية معناها « ابن الاخت » ، واورثها وُلده من بعده . والعائلة من اشرف البيوتات التركية عامة والمصرية خاصة ، اشتهرت سابقاً بابراهيم باشا المذكور ، واخيه محمد باشا ؛ وكان الاول سر

عسكر اليمن ، والثاني سر عسكر الحجاز في عهد محمد علي ؛ واشتهرت بعد ذاك بعدد غير قليل من كبار الساسة المصريين.

اما ولي الدين فوُلد بناحية السليمانية من الاستانة سنة ١٨٧٣ . وكانت امه من عائلة شريفة ايضاً ، وهي بنت احد امراء الجراكسة . فاكتنفه نبل الاصل من الطرفين.

في مصر : وفاة ابيه (١٨٧٩) – دروسه

ولم يلبث والد ولي الدين ان قدم الى مصر مع عائلته . وعهد في تعليم ولده الى معلم خاص اخذ يلقنه مبادئ العربية. على ان الاب لم يتمتع طويلاً بنجابة ابنه ، فتوفي والولد لا يتجاوز الست سنوات. فكفله ، واخوته ، عمهم علي حيدر باشا يكن ، ناظر المالية المصرية اذ ذاك. وكان الخديوي محمد توفيق باشا قد أسس في عابدين مدرسة خاصة لتعليم ابنيه وبعض ابناء امراء مصر ووجهائها ، وعيّن بها الاساتذة من رجال العلم والادب المشهورين ، وسماها « مدرسة الانجال » . فدخلها ولي الدين واقام فيها مدة يتلقى ، مع العربية والتركية ، مبادئ الانكليزية والعلوم . وشاء درس اللغة الفرنسوية فطلبها في مدرسة مارسيل العالم الفرنسوي ، ثم دخل المدارس الاميرية . وما زال يتابع دروسه ، بعد خروجه من دور التعليم ، حتى اتقن العربية والتركية ، واحكم الفرنسوية ، والمّ بالانجليزية واليونانية.

كتاباته الاولى – اولى وظائفه

وكان له ولع فطري بالكتابة ، فانشأ ، وهو في دون العشرين ، يحبّر المقالات القصيرة في الجرائد المصرية ، تارة يخوض في الأدب ، وطوراً في السياسة ، وحيناً في الاجتماع . اما الجرائد التي خصها بمقالاته الاولى فهي « القاهرة » لمحمد بك عارف المارديني ، « والنيل » لحسن حسني باشا الطويراني الذي اخذ عنه ولي الدين علم المنطق ؛ ثم اتفق مع يوسف بك فتحي واصدرا جريدة « المقياس »[1] . وكان بعض انسبائه ، ومنهم شفيق بك منصور يكن ،

(١) المقتطف : ابريل ١٩٣١ ، ص ٣٧٥ – ٣٧٦

يريدون ان يصرفوه الى وظائف الحكومة، عن طريق الصحافة التي قد تهوّره، وهو فتى بعد. فشغلوه في خلال ذلك، اولاً بوظيفة في نيابة مصر الاهلية، ثم بالقسم الاجنبي في المية السنية سنة ١٨٩٣

بين الاستانة ومصر (١٨٩٦—١٩٠٢)

في الاستانة

كانت الاستانة مسقط رأس ولي الدين فاحبها كثيرًا وحنّ اليها طويلاً. وكانت اولى زياراته لها، بعد غربته، في سنة ١٨٩٦، وقد انعم عليه السلطان عبد الحميد بالرتبة الثانية. وكان فيها عمه محمد فائق بك يكن، احد اعضاء مجلس الشورى، فاقام عنده نحو السنة، اغنى مخيلته، في اثنائها، بمناظر فروق الفتانة التي سوف يتذكرها في جميع مواقفه، سعيدًا كان فيهنيها او تعيسًا فيبكيها.

في مصر : جريدة « الاستقامة »

وفي سنة ١٨٩٧، عاد الى مصر، وقلبه يلتهب غيرة على اصلاح بلاده، وتقويم ما رآه من الاعوجاج في سياسة العاصمة، فانشأ فيها جريدة ودعاها « الاستقامة » واندفع يبسط فيها بجرأة واخلاص، كلّ ما كان يراه، صائباً من الآراء، ونافعاً من الاقتراحات. ولكن تلك المقالات كانت اخلص من ان لا تثير حفائظ الباب العالي، فنعتها الحكومة في ولاياتها. فاوقفها مرغمًا، وودّعها بقصيدة رائعة نشرها في جريدة « المشير » سنة ١٨٩٧، منها :

فمن مبلغٌ عني الغضابَ الأُلى جنوا بأني امرؤٌ ما ان اخاف غضابا
اذمّ فلا اخشى عتابًا يصيبني وامدح لا ارجو بذاك ثوابا!
علامَ أحابي معشرًا انا خيرُهم ومثلي، اذا حابى الرجال، يُحابى؟

. . . .

ولما غدا قولُ الصواب مذمّمًا، عزمتُ على ان لا اقول صوابا
فجافيتُ اقلامي، وعفت «استقامتي»، ورحت ارجّي للسلامة بابا! (١)

على ان احتجاب جريدته لم يمنعه الخوض في السياسة العثمانية، فتابع الكتابة في جريدة « المشير » المذكورة، وجريدة « المقطم »، وجريدة « القانون الاساسي » لمحمد قدري افندي، وكان يصدرها بالعربية والتركية

(١) ديوانه، ص : ٤١

في الاستانة ايضاً

وفي السنة التالية ، سافر الى الاستانة مرّةً اخرى ، فوُظف فيها عضواً في الجمعية الرسومية الجمركية . ولم يلبث ان انتقل منها الى عضوية مجلس المعارف الاعلى . على ان ماضيه كان اشدّ سواداً في نظر رجال عبد الحميد من ان يعتقدوا فيه الاخلاص لذاك العرش القائم على أسس الاستبداد . فلم يزالوا يبثون عليه العيون حتى ظنوا انه على صلة بالاحرار القائمين خارج السلطنة ، وان عنده كتباً واوراقاً من شأنها النيل من شخص عبد الحميد او من حكومته

في المنفى (١٩٠٢—١٩٠٨)

في سجن الاستانة

فارسل شفيق باشا ، ناظر الضابطة ، من يفتش منزله في ٢ كانون الثاني ١٩٠٢ . فروّعوا امرأته النفساء ، وامّه ، واولاده الصغار ، واخذوا كل ما راق لهم من الاوراق والمستندات ، وتركوه حليف اليأس والاضطراب [1]

ولم تمرّ اربعة ايام حتى قُبض عليه في احد شوارع الاستانة ، وكان ذاهباً في طلب دواء لامرأته . فألقي ، دون محاكمة ، في سجن ، ثم في سجن آخر اشدّ ضيقاً من الاول .

في سيواس

وبعد ان قاسى عذاب الظلم ، وعذاب البعد عن اهل بيته ، في هذا السجن الجديد ، نُقل الى باخرة ظنها ستلقيه في البوسفور ، ولكنها سارت به الى حيث لم يعرف الّا بعد مدّة . فأُخبر ان الارادة السنية صدرت بنفيه الى سيواس ، احدى ولايات الاناضول . فوصل اليها يوم الجمعة في ١٩ شباط سنة ١٩٠٢ ، بعد سير حثيث في الاودية والجبال ، وسط العواصف وتحت الثلوج .

كل هذا واهله لا يعلمون عن مصيره شيئاً ، حتى هدأ روعه اثر وصوله الى منفاه ، فأبرق يخبرهم ويستقدمهم اليه .

وكان من غرائب الحكومة الحميدية انها تستخدم المنفيين في وظائفها كما

١) تفصيل ذلك في المعلوم والمجهول ٢ : ١١—١٧

تشاء ، وتنفي متوظفيها كما تحب. وهكذا كان فان ولي الدين المغضوب عليه ، المنفي بعيداً عن بلاد ، ما برح من ارباب الحكومة التي نفتـه ، فانه حالَ وصوله استلم امراً بتعيينه معاون مكتوبجي الولاية بمرتب شهري قدره ١٥ ليرة ذهبية كان يقبضه في حينه اذا صدرت الارادة السنية بذلك ، والا فينتظر الشهر والشهرين والثلاثة.

اقام في سيواس نحو السبع السنوات ، قاسى في خلالها ، ولاسيما في اولها ، انواعاً من العذاب العقلي تحطّ من همم الجبابرة. وكأن القدر اراد زيادة تجاربه ، فجمع الى ذلك ألم أضرسه ، ومرض كبير ابنائـه بالحمى التيفوئيدية ، وانقطاع المواصلة مع اصحابه المتخلفين . الا انه كان لـه بعض العزاء بوجود امه وامرأته واولاده معه ، وبما لاقاه من اسباب التسلية والمؤاساة في اهـل سيواس عامّة ، وفي الاجانب المقيمين فيها خاصة مما احدث في نفسه ذكرى طيبة فخلّدها في كتابه « المعلوم والمجهول »

واذ أعلن الـدستور ، سنة ١٩٠٨ ، خرج من ذاك المقرّ . فرجع الى الاستانة ، يتفقد شؤونها ، ويرى ما آلت اليه مدينـة الجمال التي كان لها في قلبه مركز خاصّ . ولكن لم يطل الاقامة فيها بل فارقها الى مصر.

في مصر (١٩٠٨–١٩٢١)

العود الى دولة القلم

خلص ولي الدين من دولة الظلم ، فعاد الى دولة القلم ، وقـد ظنّ ان الحظ بسم لبلاده على اثر اعلان الدستور ، فلم ينزّه هذا الامل طويلاً. وكان ينتظره في مصر اصحاب ومعجبون ، فاحتفوا به ، واقاموا له حفلةً ادبية تهنئة له برجوعه سالماً . اما هو فتابع نشر مقالاته في كبريات الجرائد « كالمقطم » ، و« الاهرام » ، و« المؤيد » ، و« الرائد المصري » ، ومجلة « الزهور ». وقد تولّى مدةً رئاسة تحرير جريـدة « الاقدام » لصاحبتهـا الاميرة الكسندره اثرينوه دي ڤيزنيوسكا .

وكان له متّسع من الوقت ، في تلك الاثناء ، فجمع تذكارات ما قاساه

في السنين الغابرة ، ونشرها في مجلّديه المشهورين باسم « المعلوم والمجهول » وانتخب قسماً من مقالاته في المقطم نشرهـا بعنوان « الصحائف السود » ، ثم نشر مجموعة اخرى بعنوان « التجاريب » ، وكان قد عرّب « خواطر نيازي » فنشرها ايضاً في هذه المدة.

في الوظائف : « بسمة الزمان »

وبعد اعوام قليلة عُيّن في وزارة الحقّانية . فارتاح الى عمله . وظلّ في ذاك المنصب حتى اواخر سنة ١٩١٤ . فعيّنه السلطان حسين كامل سكرتيراً عربيًّا لديوان كبير الامناء ، واحبه كثيراً ، وانعم عليه بوسام النيل . فشعر وليّ الدين بالسعادة ، ولعلّ ذلك كان لاول مرة في حياته ! واعتبر تلك الحياة الجديدة « بسمة بسمها الزمان بعد طول عبسه » كما كتب الى صديقه الشيخ انطون الجميل بُعيد تعيينه . ولكنه ، لكثرة ما تعوّد الشقاء ، خاف ان تحول الحوادث بينه وبين التمتع بهذه البسمة[1] .

مرضه

وكان خوفه في محله . فان المرض اخذ يدبّ الى صدره ، وجعل الربو يقطع عليه انفاسه ، فينغّص ساعات نهاره ، ويقضّ مضجعه اذا شاء الاستكانة في الليل . وقد كتب الى صديقه المذكور في ١٢ شباط ١٩١٨ يصف داءه وصفاً يشفّ عما كان يقاسي جسمه من الالم ، وخصوصاً عمّا كان يُلمّ بنفسه من الجزع واليأس . قال :

« اني في يأس شديد من زوال هذا المرض . . . الذي عجز الطب عن دفعه ، وهو المسمى (الربو) emphyzéme . اذا دجا الليل تكاثرت مخاوفي ، فلا يغمض جفناي فرقاً ، لاني لا اغفي اغفاءة الا وانتبه صارخاً مذعوراً ، اذ تنقطع انفاسي ، ويشتدّ اضطراب قلبي ، وتبرد يداي ورجلاي . فاختلج مكاني ، واتلوّى تلويّ الافعى أُلقيت في النار . اريد تنفساً استعيد به ما يوشك ان يذهب عني من الحياة فلا اجده . حتى اذا بلّلني العرق ، وانهكني التعب ، عاودتني انفاسي شيئاً فشيئاً ، وذهبت النوبة على ان تعود بعد ساعة او ساعتين . ومصير هذا المرض معلوم ، وهو مذكور في كتب الطب لم يختلف فيه طبيبان .

« لا ادري أمن الموت ، وما انتظر من اهواله ، يزداد جزعي ؟ وما تطلع عليّ شمس يوم

[1] مقدّمة ديوانه ، بقلم الشيخ انطون الجميل ، ص : ٨

الا وزادتني قرباً من قبري . وا لهفي على آمالٍ تحوّلت آلاماً ! ووا حسرتي على ايام عمر ما ضحكت لي مرة الّا جعلت دموعي لها ثمناً ! أهذه عاقبة الصبر التي أطلت انتظارها ؟ ما اكثر ضلال الحكماء ! وما أكبر غش القدماء ! . . . »(١)

واذا اضفنا الى هذه الآلام الجسدية المبرّحة ، آلاماً نفسية ايسرها ناتج عن المرض ، وغيرها ناتج عن مصائب عائلية تراكمت عليه في سنيه الاخيرة منها موت ثاني اولاده فجأة بلمس سلك كهربائي ، وهو في السادسة عشرة من العمر ؛ ووفاة والدته وشقيقته وكان يحبهما حباً شديداً (٢) ؛ امكننا القول ان حياة وليّ الدين كانت مأساةً تامة ، وايامه حلقات فواجع «ما ضحكت له مرة الا جعلت دموعه لها ثمناً» !

وفاته (٦ اذار ١٩٢١)

وما زال يشتدّ عليه المرض حتى أُجبر على ترك القصر السلطاني سنة١٩١٩ ، فانزوى في بيته ، ثم قصد حلوان مستشفياً حيث ختمت سلسلة احزانه ليلة الاحد في ٦ اذار سنة ١٩٢١ ، بعد ان ترك قطعاً من فؤاده متناثرة على الاوراق ، منها هذان البيتان وُجدا الى جانب سريره :

يا جسداً قد ذاب حتى انمحى   الّا قليلًا عالقاً بالشقاء
اعانك الله بصبرٍ على   ما ستماني من قليل البقاء !

دفنه – وتأبينه

طالما تاق وليّ الدين ، في مصائبه المتعدّدة ، الى رقدة يستريح الجسم فيها في « قرافة الامام » بمصر ، وفيها مدفن العائلة اليكنية . فحقق الله متمنّاه ، فدُفن في « القرافة » المذكورة بين اهله الكرام.

وبعد اربعين يوماً ، اجتمع لتكريم ذكراه فريق من اصدقائه الادباء . فاقاموا حول قبره حفلة تأبينية . وكان امل الاصدقاء كبيراً بان جمهور حملة الاقلام في مصر يلبّون دعوة هذا الواجب فيكفرون باحيائهم ذكرى وليّ الدين عما لحق به من الاجحاف حال حياته . ولكن خاب الامل ، فلم يؤبّنه

١) الكتاب المذكور ، ص ٨-٩
٢) ميّ : الصحائف ، ص ٨٩

الا نفر قليل منهم ابراهيم دمزي ، وخليل مطران ، والشيخ انطون الجميل ، وجورج طنوس.

أوَ لم يكن وليّ الدين يتوقع مثل هذا الاعراض حين وصف موت الادباء في الشرق ذاك الوصف البليغ ، فقال :

« يموت ادباؤنا ، وتطفأ انوار المعاني في عقولهم ، وتبقى بيوتهم خالية ، واجداثهم دائرة . . . »[١]

على انه ، وان قصر ادباء مصر في ايفاء الفقيد حقه ، فلقد كان له من جرائد العالم العربي قاطبةً مراث وتآبين. وسيكون له من ادبائنا جميعاً محبون ومريدون.

شخصيته

نشأ وليّ الدين في بيت شرف وإباء ، فكان شريفاً ابيّاً طول حياته . وكان له من لطف الحسّ ، ودقة الملاحظة ، وسرعة التأثر ما جعله شاعراً في كل ما خطه ، سواء في ذلك النظم ، وهو شعره الموقع ، والنثر ، وهو شعره المرسل.

وقد خصّه الباري بقوّة بدنية ، في عنفوان شبابه ، وجرأة على العظائم لا يقف في وجهها حاجز ، كما قد يشهد ذاك الشرطي الذي اعترضه في سيره ، فعاجله ولي الدين « بضربات كندف القطن ، فالقاه[٢] » وكما قد يشهد ايضاً ذاك المتحرّف وقد « اكفأه على مكتبته واهوى بين كتفيه بلكمات »[٣] .

الا ان مقاساة الاتعاب ، وتراكم الرزايا ، وتباريح المرض اضنكت جسمه ، فافقدته قواه ولكنها لم تفقده جرأته ، وطبع الاسى على وجهه آثاره فذهب بنضارته ، ولكنه لم يذهب بظرفه وطلاقته . بل ظلّ ولي الدين ، على رغم الواجع ، لطيف المحضر ، حلو الحديث ، ظاهر التجلّد . واننا لنخطئ اذا حسبنا هذا التجلد نتيجة الاستكانة للذلّ ، او التسليم المطلق لمشيئة الله . لم

١) التجاريب ص ٥٥ ٢) المعلم والمجهول ٢ : ٢٤
٣) الكتاب المذكور ٢ : ٢٧

يكن شيء من ذلك ، لأن شاعرنا كان اوفر عصبيّة ، واسرع تلبية لدواعي ثورات النفس ، واكثر تضجراً من ان يدرك احدى هاتين الحالتين. انما كان تجلده نتيجة قوّة خاصة به تؤهله للشعور بادقّ المواطف ، ولكنها ، في الوقت نفسه ، تضبط قلبه ان يظهر متأثراً بتلك المواطف ؛ تبسط لديه سبل الخلاص من مأزق حرج ، ولكنها تربأ به عن طرق ابواب التذلل والاستعطاف للوصول الى تلك السبل ؛ تصوّر امامه بطريقة شفّافة هول الخطب المقبل ، ولكنها تمنحه من رباطة الجأش ما يوقفه ثابتاً تجاه ذاك الهول ، شامخاً على تراكم الرزايا ، مجابهاً صروف الدهر مجابهة القرن لقرنه . الا وهي الانفة ، ذاك السلطان الجبار الذي يسخر لارادته النفوس الكبيرة فيرفع مآتيها عن مآتي العامة ، ويسمو بعواطفها على عواطف السوقة. من هذه « النفوس الساكنة الى الاحساب الزكية» كانت نفس وليّ الدين ، فوُجدت بحكم الطبع مسخرة لسلطان الانفة يسيّرها حيث يشاء ، على نحو ما صوّره الكاتب نفسه في مقال «الانفة» [1] .

وكان من نتيجة انفته صفة قد يستغربها الناس لاول وهلة ، وهي بغضه الشديد للكبرياء . ولا عجب ! فالكبرياء أنفة زائفة او ادعاء يقوم به ارباب النفوس المنحطة لتقليد اشهر صفات النفوس السامية . وما فتئ اصحاب الصفات الحقيقية يكرهون من يقلدهم في صفاتهم فيظهرون بظاهرهم ، وهم في الحقيقة خلو من ذلك . فالمخاص الحقيقي يكره المالق ، والمتدين الحقيقي يكره المرائي الخبيث ، والانوف الزكي الحسب يكره المتكبر عن عجب وحداثة نعمة

اما اذا كانت الاهواء مما لا يضير الانفة ، ومما لا يساوي بين صاحبها ومن لا يفهمون الانفة ، فلا بأس بها ، ولا لزوم للتحفظ في اظهارها . وعليه كان وليّ الدين ، في ما خلا ما قد يمسّ أنفته ، شديد الميول مندفع الاهواء ، سواء في ذلك حبه وبغضه ، وتقربه ونفوره . فهو لا يتحرّج في حبّ ما يكرهه الجمهور ، ولا يتكلف في التصريح ببغض ما قد تجبره آداب المجالسة على اعتباره . فهو صادق في كل ما يقول ، مخلص في كل ما يشعر به .

وقد وافقت هذه الصراحة عنده نزوعاً طبيعياً الى الحرية والاستقلال ،

---

[1] اطلبه في الروائع ٢٣ : ١٦

قاده في جميع ظروف حياته الى الخروج عن المألوف فلم يجازَ بالخير في ذلك . خرج ، في ما خصّ الدين ، على عادات قومه فتزوّج سيدة مسيحية يونانيـة ، فآب بغضب اهله ؛ وخرج ، في ما خصّ السياسة ، على سلطانه محبّرًا المقالات ضدّ ظلمه واستبداده ، فربح السجن والنفي سبع سنوات. وخرج ، في ما خص المجتمع ، على تقاليد لم تتفق مع صراحته فنبذهـا وجاهر بنبذهـا ، فكثر اعداؤه . وخرج ، في ما خصّ الادب ، على قواعد النظم المقررة ، وقوالب النثر القديمة الى محيط الابتكار والطرافة فجمع عليه سخط المحافظين. ولكنه لم يكن ليبالي بكل ذلك ، وهو القائل رادًا على من شاء تضييق حريته :

« يريدون ان اكتب ما يريدون ، وأريد ان اكتب ما اريد .»

وهكذا كان ! فقد كتب ما أراد لا ما ارادوا ، وهو في كل ذلك :

« يذمّ فلا يخشى عقابًا يصيبه ويمدح لا يرجو بذاك ثوابا »

« لا يبالي الثناء ، ولا يبالي الهجاء . وانما يبالي ان يصدق فيه احدهما .»

وما همّه من كل ذلك ؟ اليس له من نفسه الكبيرة جيشٌ يتقاصر عنه جيش عبد الحميد ! أوَ ليس له من ادبه غنى لا يحسب غنى الارض شيئًا الى جنبه ! أوَ ليس له من حرّيته وأنفته صرح تصغر امامه صروح المعالي جميعها ! كيف لا ، وهو القائل بعد ان جاز الاربعين من العمر :

ترفّعت في وصل المعالي جميعها ومن يطّلبها كاطّلابي يزهدِ
وبتّ ، تساوت في فؤادي مناهجٌ تؤدّي لمغنٍ ، او تؤدّي لمؤددِ
واني في بيت صغيرٍ مهدّمٍ كاني في قصرٍ كبيرٍ مشيّدِ
عفا الله عن قومٍ اتاني غدرهم فربّ مسيءٍ لم يسئ عن تعمّدِ
تركت الغنى ، لا عاجزًا عن طلابه ، واترلت نفسي من منازل محتدي
وهذي بحمد الله مني براءةٌ فيا افق سجّلها ، ويا انجم اشهدي !

وان من يصل الى هذه الدرجة من الاعراض عن ترّهات العالم فتتساوى في فؤاده المناهج المتباينة السبل حتى المعاكسة ، لحقيقٌ بان يكون شاهَدَ الحيـاة من قمة انفته العالية التي الانت التجاريب من حدّتها وخففت من نشزاتها الفتية ، فاصبحت تشفق على الناس ، بعد ان كانت تزدريهم . ولكن لا تزال شفقتها ممزوجة بشيء من الترفع يدفعها الى التجرّد عمّا يلتهون به من الحطام كالمال

والوظائف ، والى الاعراض عن عوائدهم وخصوصاً عن مبادلتهم الشفقة بالشفقة. فاذا حنّت الى شيء لا يكون حنينهـا الى تعزية بشرية ، بل الى « دارات القرافة » فتقول :

« أحنّ الى تلك المراقـد في الثرى ولو استطيع اليوم لاخترتُ مرقدي !
« فاترك جسمي منزلاً لا يحلّه يكون بعيداً عن أعادٍ وحُسّدِ
« وما يتمنى المرء في ظلّ عيشةٍ تمرّ لاحرارٍ وتحلو لاعبُدِ ! » (١

هذا وليّ الدين بعد ان نالت منه الخطوب والسنون ، فأثّرت في اندفاعه. وأثّر فيه خصوصاً انكسار كبار اعدائه ، وفي مقدّمتهم السلطان عبد الحميد ، فلم يبقَ امامه ذاك النمر المتعطش الى شرب الدماء ، فيحاربه الليل والنهار ويشحذ قلمه في سبيل الذود عن مظلوميه . اسقط عبد الحميـد ، وتنفس العثمانيون الصعداء، ظانّين ان قد انقضى حكم السوط

وابو السباط « يلدبز » ذهبا

فالقى شاعرنا سلاحه مدّة حتى تعالاه الصدأ ، وكاد يضعف همّتـه خلوّ ساحة النزال من المبارزين.

اما عصرٌ كان « لليث شباة وظفر » ، فقد كان لولي الدين « شباة وظفر» ايضاً ، يدافع بهما عن فروق ،

وفي العيون ازورارٌ وفي الجوانح ذعرُ !

حتى تقهقر الليث :

فاضطرّ للصلح رغماً ومن متى يضطرّ
(واغتاله) بعدُ غدراً وشيمة النذل غدرُ ! » (٢

هذا المظهر هو احقّ مظاهر وليّ الدين بالدرس ، واشفّها عن شخصيتـه العجيبة . كيف لا وقـد تجسّمت في كتاباته هذه السياسية كل ما في عقليته من حرية في الميل ، واستقلال في الفكر ، وصدق في العاطفة ، تُقرن الى عصبية في المزاج ، وتحمّس في الاندفاع ، ظهرت آثارهما حتى في الجمل والتعابير فغدت متقطعة الاقسام ، هائجة النبرات ، متصادمة الالفاظ ، ينبض بها القلب ألماً فيبرزها دفعات كنبضاته السريعة. اضف الى ذلك قوة في الحجة وبلاغة

١) الديوان ، ص : ٨٤–٨٥ ٢) الديوان ، ص : ٣٥–٣٦

في المنطق ، واذا بك كدت تستوفي تحديد شخصية ولي الدين الادبية . فلا يبقى عليك الا معرفة مفعول مخيلته .

وهذه القوة لا تقلّ تأثيراً عن عقله وشعوره . فهي التي ترفع امام عينيه حجب الاسرار فيرى مواقف المظلومين ، ومصارع الابرياء . ويصوّرها بتلك البلاغة الفائقة ، وذاك الايجاز الفني . وكأن الطبيعة نفسها تساعده على النيل من النفوس الحسّاسة فتمنحه اروع ما في كنوزها من مشاهد يجعل فيها حوادث ابطاله : تمنحه الليل البهيم بما يُثيره من الفواجع البكماء ، وتمنحه الشتاء القاسي بما يحمله من الوحشة والسكون ، وتمنحه الخضمّ المضطرب بما يهيجه من الرهبة والاسى . فتجتمع له انواع الدياجي من ظلمات الليالي الى ظلمات البحور الى ظلمات القبور ، فيقضي البريّ غرقاً في « خليج البوسفور في احدى ليالي الشتاء ،

في ليلة ليس بها كوكبُ كأنما مشرقها مغربُ
عمي سواداً كل ما بينها فتحتها وفوقها غيهبُ »[1]

ويموت « مظلوم » شهيداً في « ليلة تضيع في معاقد ظلماتها انفاس المكربين كأنها ذوب الحزن او نسج الاسى . » وقد جاش البحر ، وطارت عاصفة « اخذت قطرات الغيث تسحّ على اجنحتها »[2] ويخمد السمّ انفاس الفتاة البريئة « تحت ليلة من ليالي الشتاء ، متغوّرة النجوم ، حالكة الجوانب »[3] . ويُساق وليّ الدين نفسه الى النفي « تحت ليل كأنه ظلّ الشقاء »[4]

ولا غرابة في هذه المقاربة فالظلمات تدعو بعضها بعضاً ، والشاعر يختار منها ما يوافق عقليّته حتى اذا برزت له الصورة تركها ، معقولةً او غير معقولة ، الى غيرها من الصور المبتكرة يضعها الواحدة جنب الاخرى حتى يتكامل له المشهد ، وهو يتنقل بينها قفزاً لا يكاد يهتمّ باحكام الصلة بين الاقسام لشدّ ما يؤثر من الالوان والتصاوير ، وقد ذكرت عنه الآنسة ميّ انه قد يبرز معانيه صوراً كما في « غرّد الطير » مثلاً فانه يكتب « غرّد » كتابةً ويرسم « الطير » رسماً .[5]

١) الصحائف السود ، ص : ٧٢
٢) فضل كتب بالدموع
٣) الصحائف السود ص ، ١٥
٤) المعلوم والمجهول ٢ : ٥٢ – الروائع ٢٣ : ٦
٥) ميّ : الصحائف ، ص ٩٣

وكثيراً ما كانت تتوسّع المخيلة بفاعيل سحر الالوان والتصاوير في نفس الشاعر فتوجد منها مقارنات وتشابيه مبتكرة حتى الغرابة ، وغريبة احياناً حتى الاضحاك . فهو لا يتراجع امام تشبيه طريف ، وان خرج عن الذوق او الاحتمال ، سواء في ذلك أكان الموقف موقف هزل ولهو ، او موقف جدّ وروعة . فبينا تراه يصوّر حالته برهبة وقد قُبض عليه وسيق امام المتصرّف ، اذا به يصف هذا المتصرّف بما يستضحك فيقول :

« اعوذ بالله !!! وجهٌ كاللبنة ، وعينان كالبصقتين ، ولحية كالطحلب ، وانف كالسواك . كل هذا يحمله عنق كخنصر الهيفاء ، وجسد كزجاجة ماؤها صبغة اليود . . . »[1]

وبينا هو يبدي بكل جدّ ملاحظاته في اخلاق اهل سيواس ، اذا بـه يذكر نساءهم فيقول انهنّ « يمشين محجبات ساحبات فضول مآزرهنّ كجماعات الاوز ، او كاقطاع الغنم . . . » ويتابع ذاكراً سبب بعض عاداتهنّ : « هذا جهل لو انقلب علماً لأصبحت غربان سيواس فلاسفة . . . »[2]

الى غير ذلك من تعابير وتشابيه خاصّة به شاء السير بها على اسلوب طريف حرّ مستقلّ ، مطلقاً حريته في ميدان الادب ؛ مما جعل خليل مطران يقول عنه :

نعجزه شعرًا ونثرًا شواردٌ ابت كلّ سيرٍ في طريقٍ معبَّدِ

على ان هـذه الشوارد ، على ما فيها من غرابة ، هي التي تميّز تلك الشخصية المحبوبة في ولي الدين ، فتجعله قريباً للقلوب على تبـاين نزعاتها ، جذّاباً للمطالعين على اختلاف رغباتهم ، وعلى الجملة هي التي تكوّن الكاتب الشخصي . اما مَن لا يرون فيها سوى آثار الخروج على التقليد الجاري ، فهؤلاء يصعب عليهم فهم وليّ الدين ، وقد صعب على وليّ الـدين نفسه ان يُنير عقولهم ؛ فلم يكتب لهم . بل كأنه نظر اليهم بترفـع حين اصدر ذاك الحكم الذي صدّرنا به درسنا هذا ، والذي نؤمل ان يتحقق ، وهو :

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فغداً يتهافت عليه ابناؤهم ! »

---

١) المعلوم والمجهول ٢ : ٢٦   ٢) الكتاب المذكور ٢ : ١٥٦